

الشباب العراقي

سابرينا تافيرنز نيويورك تايمز - بغداد

بعد قرابة خمس سنوات من الحرب, يشعر الكثير من الشباب العراقيين بالتعب من التعرض المباشر والشديد للعنف القادم من المتطرفين الاسلاميين, يقولون بانهم اصبحوا يشككون بقادتهم الدينيين وبالايمان الذي يبشرون به.

في غضون شهرين من المقابلات مع اربعين شابا عراقيا من خمسة مدن عراقية, كان هناك نمط من التحرر من الوهم قد بدأ في الظهور, حيث الشباب العراقي. ومن كلا الشريحتين الفقيرة والمتوسطة, اصبحوا يلومون علماء الدين عن العنف والقيود التي ضيقت عليهم حياتهم.

"انا اكره الاسلام وكل علماء الدين, انهم يحذون من حريتنا يوما بعد اخر وتعاليمهم اصبحت عبئا ثقيلنا علينا" تقول ساره, وهي طالبة في مدرسة ثانوية في البصرة, "معظم الطالبات في مدرستي يكرهون ان يتحكم الاسلاميون بالسلطة, لانهم لا يستحقون ان يكونوا حكام".

اثير, البالغ من العمر 19 عاما والقادم من منطقة ذات اغلبية شيعية فقيرة في جنوب بغداد, يقول "رجال الدين كذابون, الشباب لا يصدقونهم, ومن هم في عمري اصبحوا لايهتمون بالدين الان".

الا انه ليس من الواضح تماما ان كان هذا التحول يعني ابتعادا تاما عن الدين. فالتقوى العالية لازالت تخيم على حياة الشباب العراقيين الخاصة. وان القادة الدينيين, وعلى الرغم من التشكيك المتنامي, فلا زالوا لديهم قوة كبيرة. فقياس التدين, مع ذلك, يعتبر مسألة معقدة في العراق, وخاصة في المدن والقرى التي يصعب الوصول اليها من بغداد.

الا ان التحول يمكن ملاحظته, حتى لو كان نادرا, في الخيارات التي يتخذها الشباب العراقيون. فالاساتذة اصبحوا يعانون صعوبة في اجتذاب الطلاب من الخريجين لالتحاق بالكليات الدينية, والحضور الى الصلاة الاسبوعي اضحى اقل من السابق, وحتى في المناطق التي يعتبر العنف فيها مترسحا, فحسب مصليين وائمه من بغداد والفلوجة, وفي خلال زيارتين اثناء صلاة الجمعة لاتباع مقتدى الصدر في بغداد خلال الخريف الماضي, فان الحاضرين كانوا اقل بكثير مما كانوا عليه عام 2004 او 2005 .

ان انماط مثل هذه, اذا استمرت, قد تؤدي الى ضعف في السلطة السياسية للقادة الدينيين في العراق. وعلى اثر هذه المتغيرات, فان الاحزاب السياسية اصبحت تلقي باللائمة على الدين.

"في البداية, اعطوا عيونهم وعقولهم الى علماء الدين, لقد وثقوا بهم", يقول ابو محمد, وهو امام سني معتدل من بغداد, وهو يعمل الان على اقناع المتعصبين الاسلاميين المعتقلين في السجون الامريكية بالتنازل عن افكارهم المتعصبة. "من المؤلم الاعتراف بذلك, الا ان هذا قد تغير, فالناس قد خسروا الكثير, انهم يقولون لعلماء الدين والاحزاب: انتم سببتم لنا هذا."

ان التغيير الحاصل في العراق, يسير عكس النزعة الدينية المتصاعدة بين الشباب في معظم الشرق الاوسط, حيث استبدل القومية بالدين كفكر توحيد. وحين يقوم عدد من الشباب في انحاء اخرى في العالم العربي بتقدير المتعصبين الاسلاميين, فان العراق يعطي مثلا عما قد يحدث حين تطبق النظريات المتطرفة, فالاصابع التي يقبض عليها وهي تدخن قد تقطع, والشعر الطويل يمكن ان يقص ويرغم صاحبه على اكله بالقوة, وفي مختبر مثل هذا, فان التحرر من اوهام القادة الدينيين قد اخذ يتجسد.

"حين يقطعون رأس احد, فانهم يصيحون الله اكبر, ويقرأون آيات قرآنية", يقول احد علماء الدين المعتدلين من بغداد. "الشباب يعتقدون ان هذا هو الاسلام, لذا فان الاسلام فاشل, ليس فقط في عقول طلبة المدارس, وانما في المجتمع ككل."

احدى اساتذة كلية القانون في جامعة بغداد, والتي عرفت نفسها باسم بشرى, قالت عن طلابها "لقد غيروا نظرهم الى الدين, لقد بدأوا يكرهون الرجال المتدينين, ويطلقون النكات عنهم لانهم يشعرون بالتقزز منهم."

لم تكن الحالة هكذا دائما, فصدام حسين شجع التدين في المجتمع العراقي ابان سنوات حكمه الاخيرة, فقد بدا ببناء المساجد السنية وحقق المزيد من الافكار الدينية في المناهج المدرسية العامة, لكنه حرص دائما على ان تكون هذه الافكار في خدمة احتياجاته السلطوية, فالشيعة يعتبرون قوة سياسية متعاقبة ويشكلون تهديدا لقوة صدام حسين. لذا فقد كان يراقبهم عن قرب, فالشبان المتدينين من الشيعة, كانوا يعتبرون تهديدا سياسيا من المحتمل ان يجذب انتباه الشرطة. ولهذا السبب, فان التحرير الامريكي, بدا حلو المذاق لدى الشيعة, الذين وللمرة الاولى, اصبحوا يأدون شعائرهم بحرية, واصبحوا خلال فترة قصيرة, قوة سياسية فاعلة, فقد بدأ القادة السياسيين الدينين باللجوء الى التغني بالام الماضي والتقرب من المرجعيات الدينية الشيعية.

"بعد عام 2003, لم يكن باستطاعتك ان تجد لك موطأ قدم داخل الحسينية, لقد كانت تكتض بالمصلين," يقول سيد صباح, وهو قيادي شيعي من بغداد, اثناء حديثه عن احد اماكن الصلاة الشيعية.

الدين دخل بصورة مفاجئة وحادة الى الوسط الشيعي, مما جعل المثقفين من الشيعة المتدينين ان لا يشعروا بالراحة, فالمليشيات توفر دروسا في القرآن, والالقاء اصبحت سهلة المنال, ففي المحلة التي يقطنها ابو محمد, فان قصابا لا يفقه شيئا في الاسلام قد اصبح يقود مسجدا. ان عالم الدين الشيعي المعتدل, الشيخ قاسم, يذكر انه راقب متعجبا, احد طلابه والذي لم يكن يحصل على درجات دراسية عالية, راه على متن قافلة طويلة من السيارات التي اخترقت الزحام مسرعة في وسط بغداد لقد اصبح هذا الطالب قائدا دينيا.

"تخيلت انني سانزل من سيارتي وامسك به واصفعه على وجهه!", يقول الشيخ. "فهؤلاء الناس لا يستحقون المراكز التي حصلوا عليها."

احد المسؤولين في وزارة التربية, وهو شيعي علماني, قال واصفا هذا الايمان الذي وجد مؤخرا "وكانهم يحاولون ان يرتدوا حلة عصرية جديدة."

من جانبهم, فان المتدينين السنة قد خيروا ايضا انتفاخا شديدا في عدد الحضور الى المساجد, الا ان هذه المساجد ما لبثت ان اصبحت حاضنة لجماعات من المتشددين الاسلاميين, من العراقيين والاجانب, ممن كانوا يحظرون لمقاتلة الولايات المتحدة.

زين محمد, شاب يبلغ من العمر 19 عاما, وصاحب وجه جاد, كان يراقب بفضول حين قدم الاسلاميون الى منطقتهم في بغداد ودخلوا الى محل الحلاقة, مقاهي الشاي ومحلات النجارة قبل ان يستولوا على المسجد, لم يكونوا غير متعلمين او فقراء, لكنهم بدأوا بالتركيز على الجهلة والفقراء. بعد ذلك, وذات نهار, وبينما كان زين ينتظر الباص للذهاب الى المدرسة, رأى زين رجلا يمشي متجها الى احد الجيران, الجار كان استادا جامعيا ولا يعلم زين الى اي مذهب ينتمي, قام الرجل باطلاق النار ثلاثة مرات على الجار وارداه قتيلا, ثم مشى عائدا الى سيارته بهدوء "وكانه يخرج من محل بقال", يقول زين.

"لا احد يفكر," يقول زين خلال مقابلة اجريت معه في اكتوبر الماضي, "نحن نستخدم عقولنا فقط لمعرفة ماذا سناكل, وهذا شيء يحزنني كثيرا, نحن نسمع باشياء فقط نصدقها."

خلال عام 2006, حتى هؤلاء الذين كان لهم دور رئيسي في العنف الدائر قد بدأوا يشعرون بالضجر.

حيدر, التارك لدراسته, كان يفتخر حين يقول لاهله بانه يتبع عالم دين شيعي لمقاتلة الجنود الاميركان في العام 2004, الا انه وبعد مرور سنتين, قد وجد نفسه مرافقا لافراد عصابة, كان اعضاء المليشيا من الشباب يتعاطون المخدرات, والهدايا اصبحت عبارة عن اسلحه. وفي خلال ثلاث سنوات, شهد حيدر خمسة حالات قتل لمواطنين اغلبهم من السنة, ومن ضمنهم سائق سيارة اجرة سني قتل من اجل سيارته.

الامر كان بنفس السوء, ان لم يكن اسوأ, بالنسبة للشباب من السنة, والذين احتكوا بصورة فجأة بتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين, وهي جماعة دينية متطرفة, لقد وجدوا انفسهم معزولين وسط مناطق سكنية تحكمها قوانين من القرن السابع, وخلال مقابلات اجريت مع عشرات من الصبية السنة في مركز اعتقال ببغداد واستمرت لعدة ايام رطبة في سبتمبر الماضي, اظهر بعضهم ارتياحا لوجوده في السجن, لانهم سيستطيعون ارتداء السراويل القصيرة والتي كان من الممكن ان يعاقبوا على ارتداءها في مناطق سكناهم.

بعض العراقيين يجادلون في ان السياسيين المعتمدين على الدين قد جاؤوا لاثبات الهوية وليس المذهب, فحين صوت الشيعة للحزب الدينية وباعداد كبيرة خلال الانتخابات التي جرت عام 2005, كان القصد هو اثبات عددهم وليس نصرا للتدين على العلمانية. "كانت معركة لاثبات وجودنا", يقول صحفي شيوعي شاب من مدينة الصدر, "لقد كنا نتمسك بوجودنا وليس بديننا."

واستمرت الحرب, واصبح الشباب من كلا الطائفتين متورطين بصورة اوسع, فالمجرمين بدأوا باستغلال المراهقين والصبية لتنفيذ عمليات القتل, وعدد المراهقين المعتقلين في السجون الامريكية ارتفع الى خمسة اضعاف في فبراير عما كان عليه في ابريل من السنة الماضية, اما السجن العراقي الرئيسي للشباب, والموجود في بغداد, فقد ارتفع العدد الى ثلاثة اضعاف عما كان عليه قبل الحرب.

ولكن, وبينما ياخذ الشباب دورا اكبر في العنف, فان دوافعهم اصبحت اقل تأثرا بالدين من الكبار, هناك 620 مراهقا معتقلين في السجون الامريكية, الا ان اقل من 10% منهم ادعى بانه يقاتل في حرب مقدسة, وحسب القوات الامريكية, فان ثلث عدد الكبار قال الشيء نفسه. احدى العاملات في نظام السجون الامريكي قالت بانه, وحسب تقديرها, ان ثلث عدد المعتقلين, والذين غالبيتهم من السنة, يتجهون للصلاة.

"كجماعة, هم غير متدينين", يقول المايجور جنرال دوغلاس ستون, المسؤول عن المعتقلين لدى القوات الامريكية, "حين نسألهم ان كان ما فعلوه من اجل الجهاد, فانهم يقولون لا." معاذ, شاب سني في التاسعة عشرة من عمره, هزيل الجسم وذو وجنات غائرة, كان يعمل في بيع بطاقات شحن الهاتف النقال والورود البلاستيكية, كان يناظر من اجل لقمة العيش لاهه واخوته الصغار الخمسة حين جائه شخص في الثلاثينيات من العمر ويعمل على تجنيد المتمردين, وهو احد زبائن معاذ, وعرض عليه مالا مقابل ان يعمل مع المتمردين وهم مجموعة يدفعها المال والطائفة. وافق معاذ, كاسب الرزق الوحيد في عائلته, ففجأة استطاعت عائلته ان تاكل اللحم مرة اخرى. هذا ما قاله خلال مقابلة اجريت معه في سبتمبر الماضي.

وفعلنا, فان جزءا على الاقل من العنف الطائفي الدائر في بغداد يحمل دوافع مادية. احد الضباط في سجن الكاظمية, حيث اعتقل معاذ في الخريف الماضي. قال بان في سوق الاقراص الليزرية, فان ثمن سي دي يحوي مشهد قطع الراس اعلى من ثمن اخر يحوي مشهد اعدام رميا بالرصاص, وهذا ما قد يفسر لماذا الخاطفين من غير المتدينين الى قطع راس رهائنهم. "الارهابيون يحبون المال", يقول النقيب عمر, وهو من احد العاملين في السجون. "المال له سحر قوي, فلو اعطيت الارهابي مبلغ عشرة الاف دولار مقابل ان يفعل شيئا بسيطا, فهل تظنه سيرفض؟؟".

حين اعتقل معاذ في العام الماضي, عثرت الشرطة على اثنين من المخطوفين, اخوين شيعيين, عثر عليهم في مخبأ امن دلهم عليه معاذ, المصورين الصحفيين اظهروا الاخويين وعيونهم مفتوحة امام الكاميرات, بينما غطت اجسامهم كدمات سوداء نتيجة الطرب المبرح.

ان الصراع العنيف ضد الولايات المتحدة, كان من السهل جعله رومانسيا وخاصة عن بعد. "لقد كنت احب اسامة بن لادن", ادعت احدى الطالبات الجامعيات والبالغة من العمر 24 عاما. كانت تشير الى شعورها قبل الحرب التي دمرت مدينتها بغداد, فالضربة التي وجهت الى السيادة الامريكية في 11 سبتمبر 2001 كانت مرضية, والموتى كانوا شيئا تجريديا.

اما الان, فان هذه الطالبة تكرر ذات الشكاوى المألوفة, ففي الجامعة, تم فصل التفتيش الامني, والحراس اخبروها بعدم لبس التنورات القصيرة في المستقبل, وهي تغطي شعرها من اجل سلامتها الان.

بدا الاباء باتخاذ تدابير جديدة لابقاء اولادهم بعيدا عن المشاكل. ابو تحسين, وهو شيعي يسكن شمال بغداد. قال بان عائلته العريقة وحين بنوا مسجدا شيعيا, فانهم تعمدوا عدم تسجيله لدى السلطات الدينية, حتى لو كان ذلك سيجلب لهم الكثير من المزايا, لانهم لم يريدوا ان يقعوا في شرك اي من الجماعات الشيعية الدينية المسيطرة على بغداد.

وفي الفلوجة, المدينة السنية الواقعة غرب بغداد والتي كانت تدار من قبل القاعدة, فان الشيخ خالد المحاميدي, وهو رجل دين معتدل, قال بان الاباء يأتون مع ابنائهم الى المساجد كي يقابلوا المسؤولين عن دروس القرآن. في السابق, كانت العوائل تشعر بالقلق تجاه بناتها حين يبلغن سن المراهقة, لكنهم الان, وكما يقول الشيخ, يقلقون اكثر تجاه اولادهم.

"سابقا كان الاباء يحذرون ابنائهم من عدم التدخين او شرب الكحول", يقول محمد الجميلي, وهم اب من الفلوجة وله ابن في العشرين من عمره, "اما الان فان جميع طاقاتهم مركزة لمنعهم من التورط مع الارهابيين."

اما من يقومون بالتجنيد, فانهم لا يلينون, ويظهر بانهم اذكياء, فهم يغيرون من الوسائل التي يستخدمونها مع اهدافهم من الصغار, فالجنرال ستون يصفها وكأنها الوسيلة التي يستخدمها القوادون حين يستهدفون من يحتمل ان تعمل كعاهرة. الضباط الامريكان العاملين في المعتقلات الامريكية قالوا بان المعتقلين من القاعدة هم من يتم التركيز عليهم في جلسات العلاج النفسي الجماعية وهم من يتم سؤالهم اكثر من غيرهم.

لقد حاول احد من يقومون بالتجنيد لحساب القاعدة بالتقرب من زين, بحجة اعطائه دروسا في اللغة الانكليزية, كون هذه الدروس كانت مطمحا شخصيا حاول زين نيله منذ شهور, ولكن حالما ادرك مايريده منه الرجل, حتى بادر الى الانسحاب بادب من الدروس.

"حين نتحدث معهم, تجدهم متحضرين, واذكياء جدا", يقول زين, وهو شيعي غير متدين, والذي يذكر ادعاءه الازدراء لمذهبه كي لا يثير الشكوك حوله.

اما الشريحة التي يركزون عليها, فهي عادة فقيرة وغير متعلمة. فحوالي 60% من البالغين المعتقلين في السجون الامريكية هم من الاميين, ولا يستطيعون حتى قراءة القرآن الذي يدعوا اليه من يقومون بالتجنيد من المتدينين.

وهذا يقود الى انعطافة غريبة, فاحد المعتقلين الشباب, وهو احد زبائن ابو محمود, قد تم اقتناعه بان يقتل والديه بعد ان اطلق سراحه, لانهم قد تزوجوا بطريقة اسلامية غير مطابقة للشريعة.

الجنرال ستون يحاول ان يصحح المشكلة من توفير دروس دينية يلقيها رجال دين معتدلين.

هناك لعبة جديدة مفضلة لدى اوساط الصحفيين في بغداد, فحالما يظهر رجل معمم على شاشة التلفزيون حتى يبدأون بالصراخ على الشاشة واطلاق النكت, وفي احدى هذه المرات, بدأوا بنصح الناس بعدم اعطاء ارقام تلفوناتهم النقالة الى رجال الدين.

"اذا عرف الرقم, فانه سيسرق رصيد الهاتف", يقول الصحفي. "الشيوخ يشكلون الان مجتمعا من غير المؤمنين."